نجمان ياسين

# تجربة البحث عن التفرد والخصوصية في « من قتل مكمت الشامي » ؟

تمتلك مجموعة ـ من قتل حكمت الشامي ؟ للقاص جمعة اللامي اهميتها من خلال عدة اعتبارات منها ان اغلب قصص المجموعة قد كتبت في الستينيات وجاءت متجاوزة في الشكل والمضمون لاغلب تلك المرحلة ، ومن قدرتها الانتقامية في محاولة التفرد وطرح صوت موحد خاص اضافة الى الحس التجريبي والبحث عن لغة جديدة تستوعب ثقل وعمق تجربة القاص الكثيفة والمتداخلة ، القريبة بواقعيتها وشاعريتها القاسية .

وسط ركام القصص التي كتبت في الستينيات والتي سقط اغلبها في افتعال التجربة والكتابة من الخارج دون ادراك لقانون الضرورة، تبرز قصص جمعة اللامي لتتفرد وتطرح سماته الذاتية وطابعه الخاص المرتبط بعذابه الجاد في خلق نمط متفرد ، ومن هنا تمتلك تبريرها كشهادة ابداعية رائدة في مجال التجريب والبحث عن الغريب والمثير دون ان تسقط في لعبة الشكل المجردة او تخفي المضمون المشحون بالتوترات النفسية والوعي الاجتماعي .

ان اهم ملامح عوالم جمعة اللامي في هذه المجموعة يمكن ان نجملها في :

١ ـ الحس التجريبي المغامر الذي يريد ان يقيم ربطا دافئا بين احتدام المضمون والشكل بحيث لايحدث انشطار بينهما او يسبق احدهما الاخر ، وهذه الرغبة في ايجاد علاقة متناغمة تستوعب تجربة القاص تنم باشكال ثرية وجديدة .

٢ ـ محاولة خلق عالم خاص بديل لعالمنا ، عالم تتعالق فيه الاشياء وتشف لتكشف عن قانونه الداخلي وتعري المزيف واللاانساني في عالمنا ، عالم تتفرق الاحداث فيه وتعود لتلتم مكونة جوهر الواقع .

٣ ـ استبطان التاريخ والغوص في دهاليزه المظلمة كمعادل لتاريخ الانسان المعاصر وتحقيق جدل الثورة الممتدة في كل العصور والتي تتفجر في التاريخ والانسان معا .

٤ ـ استيحاء الاجواء الدينية والتراث الشعبي وادخالها في طبيعة العمل القصصي مما يمنح بتجربته نكهة ذات طقوس ومراسيم مدهشة .

٥ ـ الموقف المتمرد عند البطل ورفضه لقسوة العالم الخارجي والمتأني من حدة الوعي والادراك لصعوبة الوضع البشري ، اي ان محرك التمرد عند البطل هو رفض نفاق الحياة الانسانية وهذا الفهم يتفق مع البيركامي الذي يقول : « لئن كان هناك تمرد فلأن الكذب والظلم والعنف تصنع جزئيا وضع المتمرد » .

٦ ـ ظهور الموقف العبثي من العالم والاشياء والذي يشكل بداية التمرد عند البطل اذ ان التجربة العبثية ـ كما يؤكد روبير دولبيه ـ تمنحني بديهية وحيدة واولية : تمردي « وهذا الموقف العبثي يقترن احيانا بالقلق الوجودي والرعب من العالم والاحساس بعدم جدوى الفعل الانساني، وهذا الموقف الوجودي لا يقع في خطيئة اليأس والعدمية عند البطل بل يتطور الى تمرد يرتبط بالثورة . ذلك ان « حركة التمرد تبدو في اصلها قصيرة فهي ليست الا شهادة مضطربة ، اما الثورة فهي على العكس تبدأ من الفكرة ، بل على وجه الدقة ادخال الفكرة في التجربة التاريخية ، في حين ان التمرد هو فقط الحركة التي تفضي من التجربة الفردية الى الفكرة » .

٧ ـ التقاء الجانب الرمزي بالواقعي واختلاطهما بالحس الاسطوري الشعبي مع الاحتفاظ بقدر كاف من الشاعرية .

٨ ـ ابتكار لغة متجانسة وجسورة للتعبير عن الوضع النفسي للبطل اذ تكون تارة لغة توراتية او صوفية او لغة واقعية بحتة ، او تكون لغة مهشمة موزعة تارة اخرى بما ينسجم مع طبيعة الموقف والوضع النفسي .

٩ ـ ارتباط الموقف الطبقي اتحاد بالموقف الوجودي القلق .

بعد هذه الملاحظات نبدأ الدخول في تفاصيل عالم جمعة اللامي لتأكيد الاستنتاجات السابقة .

في القصة الاولى من المجموعة ـ اهتمامات عراقية ـ يضعنا القاص امام اضاءة للتاريخ ، اضاءة تستوحي الجانب المشرق والمضيء من التاريخ والتي تمتد بايولوجيا منه الى تجربة الانسان المعاصر ، فاستشهاد الحسين وموت فقراء الزنج سابقا يلتقي في ظروف القمع المتشابهه مع تجربة الانسان حاليا ، واذ تتداخل الاصوات في القصة وتتعقد فانما لتشير الى صعوبة وتعقد التجربة الحضارية ، هنا الفقراء نفس الفقراء ، والموت ذات الموت ، وحدة التجربة واحدة ، واذ تختلط الاسطورة بالتاريخ والحكاية الشعبية الاسرة فان القصة تجرنا الى الانشداد ، بيد ان القاص يتدخل عقليا ليخلق مشاركة ذهنية بعيدة عن الانفعال العاطفي والقصة باصواتها العديدة ورفضها المدروسة تنجح في تحقيق الهدف وتلقي بنا في قبضة التاريخ ـ العصر لنراجع الكثير من الموروثات القديمة .

وفي ـ الغرفة ـ تلمس تجربة الانسان المحكوم بالحرية والذي يرى من الاشياء ما لا يراه « مؤكد أن هذه المدينة عمياء » ولذا يسعى الى تحطيم المألوف والاعتيادي في الحياة ، وتضج القصة بالرموز ـ الجياد البشرية ، الغرفة السجن ، الملكة ، اشارة للامل وحب القمر المرتبط بالحكاية الشعبية مع الحنين الى الطفولة ـ والوضع الانساني في الغرفة غامض ومعقد ، كذلك هو الوضع في الخارج : وضع يفسر الانسان ويضطهده : « صاح في وجهي رجل ضخم : انت اسمك يوسف ، ولكننا سندعوك نوح ، هذه انظمتنا. هنا يتحول الانسان الى رقم ، لايختار حتى اسمه فالنظام هو القانون الاوحد ولا بأس ان يستلب الانسان .

ويبدأ الليل نعرية الاشياء وكشف الاقنعة في قصة « الليل في غرفة الآنسة «م» ـ حيث تختلط التجربة الجنسية الشاذة بالجريمة وبالعلاقات المتناقضة ـ فضيلة عبدالصدوق ـ والفتاة التي قتلت من قبل الشاب المثقف بحكم ان الاضطهاد الخارجي الذي لايسمح للداخل بممارسة التجربة هو المسؤول عن هذا التشكل الشاذ للانسان ودفعة للقيام بفعل التعويض تخلصا من اعراف المجتمع ، ولذا يسود الانحراف وتبدأ طقوس الزيف ضمن الدائرة وضمن الداخل الانساني الذي يقرر اننا نمارس الاشياء الممنوعة دون ان نجزؤ ونتحدث عنها لانها ترتبط بالقدسية المتأتية من المجتمع .

وتبدأ قصة « من مذكرات طائر الليل » بتقديم تقرير علمي يمتزج بالاسطورة الغريبة والمحتملة الحدوث ونكون امام فانتازيا معادلة لصلابة وخواء الواقع الذي يشير الى احساس حزيراني قاس بعدم جدوى التحرك والسقوط في الرتابة والايمان بان الحياة لعبة مسلية وغبية تدفع الى الالية في التعامل من خلال عدم اتخاذ موقف من قبل البطل الذي لا يملك الا ان يكرر : نعم .. نعم .. نعم .. دون ان يمتلك القدرة على الرفض ، انه هنا كائن مدجن له احساس عبثي جارح وليس له الا ان يساير الاخرين . وفي قصة « التحول » التي تحمل نفس عنوان رائعة كافكا العظيمة نبدأ رحلتنا

مع قصة تأملية تشبه السياحة الفكرية ذات الطابع المرعب عن الوجود ومصير الانسان من منظار ميتافيزيقي ، القصة كابوس رهيب تقرر فقدان معقولية العالم : الطفل الذي نبتت شواربه بفتنة ، وتؤكد ان الحياة تورث الرعب والحزن للانسان رغم احتجابه اللامجدي عند سقوطه في العالم : وعندما يحتج الطفل لا يجد الا الصراخ وسط جحيم العالم :

هذا العالم اخرس
هذا العالم ابكم
هذا العالم اطرش
هذا العالم دنيء
من يعطيه البراءة والحلم ؟..

ولان البطل يدرك ان الانسان يمنح الوجود المعنى في محاولة للكذب على الذات « طوال قرون لم نفهم منه الا الوجوه والرسوم التي كنا نكسبه اياها مقدما ولان القوى تنقصنا بعد الان لاستعمال هذه الحيلة » لانه يدرك خداع الانسان لنفسه وعدم قدرته على المواصلة في الكذب ، يتمرد فيفصل من العمل ويتهم بالجنون لكنه يظل مصرا على تفسير العالم بالحدس الباطني ويظل خارجا على الاعراف والتقاليد والرغبة بالا يصنعه الاخرون ، بينما تقف زوجته لتؤكد ان العالم عاقل وشجاع « الرياضيات الدامية التي تنظم وضعنا البشري » اي تصنع العقل والمنطق البارد لتفسير العالم « الشجرة هي الشجرة » وامام المنطق الصارم للزوجة لابد للبطل بموقفه الداخلي الحدسي الذي يحطم العقل أن يرفض المهادئة والسقوط في تجربة الكذب ، والكذب على النفس ، وهنا يتشكل المعادل في القصة ليمنحها القدرة على اثارة اكثر من سؤال عن العالم ومصير الانسان .

ويوزع القاص قصته « ابراهيم العربي » على اربعة مقاطع يربطها خيط سري وخفي ، فماجي العجوز المنفية في البار تلتقي بالهم المشترك مع ابراهيم العربي الذي يعيش تجربة النفي والاضطهاد في السجن وفي ذات الوقت يعيش تجربة العلاقة التاريخية مع عبيد المأمون الفاتحين « وقود الثورة في كل مكان وزمان » فتجعله احزان النبوءات الجديدة والحالات الانسانية في حالة وجد ثوري يتجسد واقعيا في « الهجرة » عندما يقف قرب « نصب الحرية » ليلتحق من جديد « بالشحاذين والعمال والجنود الذين كانوا يملأون شوارع بغداد في ذلك اليوم » البطل هنا يحقق تبرير وجوده الانساني في المشاركة الجماعية والاغتسال في نهر الثورة وينفض عنه حس القلق عن طريق الالتقاء الحميم بانسان الثورة التي تفيض وتمتد في روح الاشياء .

وتبدأ قصة « من قتل حكمت الشامي ؟ » بسؤال يتضمن اكثر من معنى ويحتمل اكثر من اجابة . هل هي الثورة « ونسه » ؟.. ام الذين خانوا الثورة ؟ وتتنامى القصة في بناء عضوي جميل وعالم ثري خصب متداخل العلاقات الحلمية والطقوسية حتى تكاد تتحول الى سمفونية عذبة ابان لقاء البطل بالثورة ، سمفونية مناجاة باذخة نوراتية ذات جلال وشموخ يذكرنا بنشيد الانشاد وبراءة الثورة التي تتشكل بين الحضور والغياب ، بين جدل الحياة والموت لتصل بنا الى حضور البطل الشهيد امام العالم كقضية تبشر بميلاد جديد تنبي دينه : الحب .

وبين الولادة والموت واصوات النذير والبشارة يتأكد حضور الثورة ، وحضور البطل الشهيد عندما يسأل الحلاق : من قتل حكمت الشامي ؟..

وفي ـ ساعات من زمن الآني حكمت الشامي ـ يندغم الزمن الداخلي والخارجي في عناق اثيل ليشكلا القصة التي تجسد جانب البراءة عند الطفل المسكون بالموت اولا ثم تنعطف لتصور العلاقة المأساوية في البار بين المحقق وهرمز والاب والتي تكشف غباوة المحقق والقانون الصارم المسلط على الرؤوس من جهة ، وتنير شخصية البطل عن طريق هرمز : « من الارض جاء ، غرة في جبينه ، صامت حتى في كلامه ، وهادىء في صخبه ، ابيض اللسان والقلب ، تتجه عيناه الى دروب ابن الله » .

وتستمر اللغة الرائقة الشفافة بحسها الاسيان والاليف ومفرداتها الصوفية ، تستمر كلغة تجل وكشف تتفق والموقف الثوري الصوفي لتفسر اشكالات الوضع : « اجيء كالحلم وامر على بيوتكم ، وليس لي الا الحب اوزعه عليكم فلقد اماتني ان اراكم متفرقين » .

فالبطل هنا يحضر في الاشياء ويتجول في الشوارع ويتأكد حضوره في شهادة الفتاة ، شاهدت رجلا يغسل وجهه بالماء الربيعي » .

ويتأكد في حضوره قرب الام : واقترب منها ناعما كالحلم » .

حلم هو وواقع ايضا ، شهيد كالحلاج وحاضر حضوره الثوري في العالم وشهادة « حورية » تأكيد اخر لديمومة الثورة : « رغم ان زوجي لم يطأني منذ شهر فقد شعرت ان احشائي بدأت تثمر » .

وبهذا تحل الثورة في الاخرين وتصبح الشهادة بمثابة ولادة قادمة مثلما جسدت القصة عن طريق الجانب الصوفي ، الواقعي ، الملحمي والرمزي فجاءت قوية مدهشة وذات ضربات موسيقية نفاذة .

وتتحول المرآة في « تاريخ القتلة » الى رمز والعلاقة معها تصبح علاقة عذاب ونزيف داخلي في الحاضر ازاء عذاب التاريخ ، وشموخ التاريخ وتزييف وجهه الصادق يولدان الاحساس بملاحقة التاريخ وعدم التواصل مع المرأة ، فقدان بريق ونار الوجه العربي يسبب التوتر بين الماضي والحاضر « نفقت الجياد ، في البحر الجياد تنام .. وعبد الرحمن فقد زيه العربي .. غرق في البحر .. سافر في الموجة المتجددة الى الداخل » .

هنا يتم الالتقاء في الغربة الوجودية والاجتماعية ازاء الرمز التاريخي : الداخل منفي والبطل هو الاخر منفي .

لكن كليهما يروم الخلاص من اسر الواقع ، يريد الابحار الى الداخل ، الى الاكتشاف ، الجوهر ، ومن الاعماق تبدأ تجربة الجدل في التشكل من جديد وصولا الى استمرارية الثورة .

وفي « امرأة في خطوات رجل قتيل » نقف امام بداية قصصية واقعية تتنامى عبر الحلم لتصل الى حالة فانتازية تقيم جوا بشعا للقتل والارهاب اذ ترسم صورة لمحاصرة وملاحقة الانسان وقتله بشكل وحشي في ظرف غامض يرسخ معنى عدم ضمان الحياة الانسانية وترتد القصة الى الواقع ثانية ، وفي الواقع يتحقق حلم القتل الرهيب فيتأكد لنا : ان كل شيء محتمل الحدوث في هذا العالم .

اما القصة الاخيرة « يوم في تاريخ مدينة منسية » فهي من قصص جمعة اللامي الجديدة عن مدينته الاسطورية ـ الواقعية « اليشن » والتي نشر بعضا منها في المجلات العراقية والعربية . القصة تجربة جديدة شكلا ومضمونا اذ يعمد القاص الى خلق تاريخ خاص ، سري وغامض ، مركزا على التركيب والبناء الشعري المتداخل الذي يتعمق بومضات واقعية ذكية . وفي تقسيمه للقصة يطرح شخصية متعب المطرود ـ المجنون ـ رمزا للنبوة والمبشر بموت الجواد ، بينما يؤرخ للجواد من خلال وصف تاريخ وطبيعة مجتمع مدينة ـ اليشن ـ هذا التاريخ الذي يطرح شهادة سليمة : انتم القتلة . ويوضح اجواء الخيانة وموت الشيخ ، اما المقاطع التفسيرية والهوامش « ما فاتك من دهاء النساء » و « من رسالة مطولة وجدت لدى امام المسجد » فتقدم الكشف والاضاءة من الداخل وتنير عالم المدينة السري بضربات موحية ذات تركيز شديد ، وبهذا يحقق القاص شكلا للقصة يقربها من بناء القصيدة الحديثة التي تتشكل من خلال الاجزاء دون ان تمنح نفسها بسهولة وللوهلة الاولى ..

ان مجموعة « من قتل حكمت الشامي ؟ » اضافة رائدة وشجاعة للقصة القصيرة الحديثة في العراق واسهام جيد في عالم القصة العربية ، مجموعة تحقق بداية ثورة في الادب وتقتحم دروبا غير مأهولة ، دروبا ستتضح حتما في التجارب المقبلة الجديدة لجمعة اللامي .

الموصل